الفصل الخامس

الفيلسوف ابن رشد.. طبيباً

ويتضمن هذا الفصل العناصر والنقاط الآتية:

١ ـ مدى اهتمام ابن رشد بدراسة الطب.

٢ ـ أهم مؤلفاته وشروحه فى مجال الطب.

٣ ـ ابن رشد من الفلاسفة الأطباء، وليس من الأطباء الفلاسفة.

٤ ـ البحث عن مصدر حركة الجسم.

obeikandl.com

الفيلسوف ابن رشد.... طبيباً

أولاً: تمهيد:

إذا كانت أنظار الباحثين قد اتجهت إلى الاهتمام بابن رشد وركزت على كونه من أعظم فلاسفة العرب منزلة وعمقاً وثراء فلسفياً فإننا نود ـ من خلال قليل من الصفحات ـ الإشارة إلى جانب من جوانب عظمة مفكرنا العظيم: أبو الوليد بن رشد، والذى يعد آخر فلاسفة العرب. وهذا الجانب هو المتعلق بالطب عند هذا المفكر.

إننا إذا رجعنا إلى تاريخ حضارتنا العربية الإسلامية، فسنجد من الفلاسفة من جمع بين الفلسفة من جهة والطب من جهة أخرى، من جمع بين كونه فيلسوفاً وكونه طبيباً. نجد هذا فى المشرق العربى كما نجده فى المغرب العربى أيضاً، نجده عند ابن سينا فى المشرق وعند ابن رشد فى المغرب. وإذا غلب على المفكر الجانب الطبى بحيث برز على الجانب الفلسفى فإنه يعد من **الأطباء الفلاسفة** كأبى بكر الرازى، والذى يعد طبيباً لا نظير له فى تاريخ حضارتنا العربية الإسلامية، وإذا غلب على المفكر الجانب الفلسفى بحيث يعد أكثر ظهوراً على الجانب الطبى، فإنه يعد من **الفلاسفة الأطباء** ومن بين هؤلاء مفكرنا ابن رشد.

لقد كان الجمع بين الفلسفة والطب أمراً متوقعاً وخاصة إذا وضعنا فى اعتبارنا أن كل العلوم إنما كانت تدخل فى إطار الفلسفة، أى أن الفلسفة كانت تبتلع كل العلوم فى جوفها. بالإضافة إلى أن الاتجاه العقلى الذى نجده شائعاً عند فلاسفة العرب إنما ينفتح بطبعه على الاتجاه العلمى، بحيث يكون من

السهل الميسور أن يجمع المفكر ـ كما قلت ـ بين الأبعاد الفلسفية الميتافيزيقية والأبعاد العلمية. أما إذا اتجه المفكر اتجاهاً لا عقلانيّاً، أى اتجاها يعد ضد العقل وطعناً فيه وذلك على النحو الذى نجده عند الغزالى وعند ابن تيمية، فإننا فى هذه الحالة لا نجد نوعاً من الجمع بين الجانب الفلسفى والجانب العلمى. والدليل على ذلك أننا لا نجد مساهمات من جانب الغزالى ومن جانب ابن تيمية أيضاً فى الجوانب العلمية، بمعنى أن نزعة كل منهما التقليدية قد وقفت بينهما وبين الانفتاح على طريق العلم.

قلنا: إن ابن رشد بالإضافة إلى كونه فيلسوفاً، فإنه أيضاً كان طبيبا. ولعل ذيوع صيته عند اللاتينيين كشارح لأرسطو هو الذى أدى إلى حجب شهرته كطبيب ومؤلف لكتب ورسائل هامة فى مجال الطب، بالإضافة إلى أن الشهرة التى نالها كتاب (القانون) فى الطب لابن سينا قد حجبت الأهمية الكبرى لمؤلفات ابن رشد فى مجال الطب، تلك المؤلفات والرسائل التى تصل فى بعض القوائم إلى عشرين مؤلفاً.

لقد تتلمذ ابن رشد على أبى جعفر هارون ودرس عليه الطب ولزمه مدة، كما درس دراسة عميقة كتب الطب التى قام بتأليفها من سبقوه فى هذا المجال. فإذا رجعنا إلى قوائم مؤلفاته ـ والتى سنشير إليها بعد قليل ـ وجدناه قد أفاض فى شرح وتلخيص كثير من كتب جالينوس وابن سينا وغيرهما من أطباء. لقد ظهر أثر اطلاعه فى كثير من الكتب التى ألفها. ويكفى على ذلك دليلاً كتابه (الكليات)، هذا الكتاب الذى عرف فى العصر الوسيط واشتهر شهرة كبيرة، وإن كانت تلك الشهرة لم تبلغ ـ كما قلنا ـ شهرة كتاب (القانون) لابن سينا.

ولم يقتصر ابن رشد على التأليف فى الطب، بل إننا نجده يشتغل بالطب عملياً. إن بعض مترجمى حياته قد أشادوا بهذا الجانب.

قلنا: إن دراسة هذا المجال لم تنل العناية التى تستحقها. وهذا يجعل مهمة

الباحث فى طب ابن رشد مهمة عسيرة، نظرا لأنه لازال مجالا بكرا إلى حد كبير. ولكننا سنحاول من جانبنا دراسة هذا الجانب رغم ما فيه من غموض وصعوبة، آملين أن نكون قد وفينا جزءا من جانبنا نحو هذا المفكر العملاق الذى يحق لنا معشر المشتغلين بالفكر الإسلامى العربى، أن نفخر بإنتاجه ونزهو بما حققه من نفوذ طوال عدة قرون جاءت بعده.

ثانيا: مصادر حياة الطبيب الفيلسوف ابن رشد:

يمكن القول ـ اعتمادا على ما يذكره E. Renan ـ أن أهم المصادر القديمة التى نرجع إليها فى دراسة حياة ابن رشد هى:

١ ـ إشارة موجزة خص بها ابن الأبار فيلسوفنا ابن رشد، حين قيامه بإكمال معجم التراجم لابن بشكوال.

٢ ـ مقالة طويلة ضمن تكملة لمعجمى ابن بشكوال وابن الأبار، وقد كتبها أبو عبد الله محمد بن أبى عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصارى المراكشى.

٣ ـ دراسة وجيزة لابن أبى أصيبعة فى كتابه الشهير (طبقات الأطباء).

٤ ـ مقالة للذهبى تحدث فيها عن اضطهاده ونكبته أيام يعقوب المنصور.

٥ ـ مقالة ليون الأفريقى فى مؤلفه (مشاهير الرجال عند العرب).

٦ ـ إشارات بعضها يغلب عليه الإيجاز، لمؤرخى الأندلس، وخاصة عبد الواحد المراكشى فى كتابه القيم (المعجب فى تلخيص أخبار المغرب).

٧ ـ بالإضافة إلى ذلك، فهناك بعض العبارات المتناثرة بين ثنايا مؤلفات ابن رشد نفسه، وتشير من بعض زواياها إلى حياته.

ويظهر ـ كما يقول E. Renan ـ أن ابن الأبار والأنصارى يعدان أكثر معرفة بأخبار ابن رشد، إذ أنهما قد استندا فى سرد أخباره على من عرف فيلسوف قرطبة وطبيبها معرفة صحيحة ودقيقة. وكذلك تستحق أخبار عبد الواحد

المراكشى الثقة التامة، وإن كان قد ظهر بعد ابن رشد بجيلٍ، إذ أن الأخبار التفصيلية التى رواها عن ابن زهر وابن باجه وابن طفيل، تدلنا على أنه عرف بدقة المجتمع الفلسفى فى زمانه. أما ابن أبى أصيبعة فقد جمع أخباره من القاضى أبى مروان الباجى. وإذا سلمنا بأن القاضى ـ هذا ـ عرف ابن رشد معرفة شخصية، فإن ترجمة ابن أبى أصيبعة لحياة ابن رشد تعد ترجمة صادقة.

ثالثا: نشأة ابن رشد والبيئة الفكرية التى عاش فيها:

ولد طبيبنا أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد فى قرطبة عام ١١٢٦م (٥٢٠هـ) وقد اتفق ابن الأبار والأنصارى على هذا التاريخ، كما روى أنه مات فى عام ٥٩٥هـ = ١١٩٨م.

وعلى وجه التحديد ـ كما يقول S. Munk ـ فى ليلة الخميس التاسعة من صفر التى توافق العاشر من ديسمبر.

وإذا ذكرت قرطبة فقد ذكرت مدينة من أعظم المدن بالأندلس، إذ ينتسب إليها جماعة كبيرة من أهل العلم. يقول ابن بسام فى كتابه (الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة): كانت قرطبة منتهى الغاية، ومركز الراية، وأم القرى، وقرارة أهل الفضل والتقى، ووطن أولى العلم والنهى، وقلب الإقليم، وينبوع متفجر العلوم... ومن أفقها طلعت نجوم الأرض، وأعلام العصر، وفرسان النظم والنثر، وبها ألفت التأليفات الرائعة، وصنفت التصنيفات الفائقة.

وابن رشد نفسه طالما اعتز بقرطبة اعتزازا كبيرا، بل كثيرا ما ذكرها ـ كما يقول Renan ـ بين ثنايا مؤلفاته وشروحه. فمثلا فى شرحه لكتاب (جوامع السياسة) حينما ذكر زعم أفلاطون بأن اليونان شعب ممتاز فى الثقافة العقلية، ادعى للأندلس عامة ولقرطبة على وجه الخصوص هذا الامتياز. وفى كتابه (الكليات فى الطب) أكد لنا أن الإقليم الذى تقع فيه قرطبة هو أطيب الأقاليم. وإذا رجعنا إلى كتاب (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقرى، نجد

خبر تلك المناظرة التى جرت فى حضرة ملك المغرب: المنصور يعقوب، بين الفيلسوف ابن رشد وأبى بكر بن زهر، وكان هذا الأخير من أهل أشبيلية، حول تفضيل أى البلدين على الآخر. فيقول ابن رشد: إذا مات عالم بأشبيلية وأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها. وإن مات مطرب بقرطبة وأريد بيع آلاته حملت إلى أشبيلية.

هذا عن قرطبة التى أجمعت كتب التاريخ على وجود نهضة ثقافية فيها أكثر من غيرها من مدن الأندلس، أما عن أسرته فإننا يمكننا أن نعتبرها من الاسر التى كانت تتمتع بالوجاهة والشهرة، كما كانت تتمتع بتقدير عظيم فى مناصب القضاء. وقد شجع وجود ابن رشد بين أفراد هذه الأسرة على الاشتغال بالنواحى الثقافية والتأليف فى مختلف فروع المعرفة. فالجد كان قاضيا للجماعة بقرطبة، كما كان فقيها عالما حافظا للفقه مقدما فيه على جميع أهل عصره. والأب لم يكن يقل تعمقا فى الفقه عن جد ابن رشد هذا، وابن رشد نفسه قد حفظ كتاب (الموطأ) عن أبيه كما يحكى ذلك ابن الأبار.

والمهم عندنا أن ابن رشد قد نشأ فى جو يفيض بالعلم والمعرفة. كما تعمق فى دراسة الشريعة الإسلامية والفقه المالكى، بل درس الأدب والشعر، واتجه إلى التعمق فى الطب والرياضيات والفلسفة وعلم الكلام.

وإذا رجعنا إلى كتاب (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) لابن أبى أصيبعة، وجدناه يذكر الكثير من العلماء والفلاسفة سواء كانوا أساتذة لفيلسوفنا، أم كان بينه وبينهم صلات فكرية. فمنهم ابن بشكوال، وأبى جعفر المنصور، وابن مسرة، وابن طفيل. أما ابن باجه فإننا نرجح أنه لم تنشأ بينه وبين فيلسوفنا صلات فكرية؛ دليل هذا أن فيلسوفنا كان فى الثانية عشرة من عمره حين توفى ابن باجة سنة ١١٣٨م. وهذه السن بطبيعتها لا تسمح بالاتصال الفكرى بينهما.

كما كان من الأحداث الهامة فى حياته اتصاله بأمير المؤمنين أبى يعقوب

يوسف، الذى يحكى عنه المؤرخون أنه كان ذا ثقافة غزيرة، وأنه كان مطلعا على الفلسفة ورجالها. واتصاله بأمير المؤمنين هذا كان من الأسباب التى دفعته إلى شرح أرسطو.

بعد ذلك تأتى نكبته، ونكبته نكبة للفلسفة واضطهاد للمشتغلين بها؛ إذ أن الأمير أبا يعقوب ـ الذى طالما شجعه ـ قد توفى، وخلفه ابنه يوسف الملقب بالمنصور. وإذا كان هذا الأخير قد كرم ابن رشد تكريما عظيما، إلا أن نكبة فيلسوفنا وطبيبنا قد حدثت فى عهده[1].

رابعا: اهتمامه بمجال الطب:

قلنا إن فيلسوفنا وطبيبنا ابن رشد قد خاض فى ميادين عديدة. إذ أننا لو أخذنا فى دراسة نتاج واحد واحد من مفكرى الإسلام لم نجد منهم من كان أعمق تأثيرا وأقوى بريقا من هذا المفكر العملاق.

فإذا انتقلنا من ميدان الفلسفة ـ التى طالما بحث فيها المؤلفون من مستشرقين وعرب ـ إلى ميدان الطب، وجدنا ابن رشد قد ساهم مساهمة كبيرة فى هذا الميدان. وقد تتلمذ طبيبنا على أبى جعفر هارون ودرس عليه الطب ولزمه مدة. وهذا ما تحكيه لنا كتب التراجم التى عنيت بالترجمة لفيلسوفنا. كما أنه درس دراسة عميقة كتب الطب التى ألفها من سبقوه فى هذا المجال. فإذا رجعنا إلى قوائم مؤلفاته وجدناه قد أفاض فى شرح وتلخيص كثير من كتب جالينوس وابن سينا وغيرهما.

وقد ظهر أثر ذلك كله فى كثير من الكتب التى ألفها ابن رشد. ويكفى على ذلك دليلا، كتاب (الكليات) ذلك الكتاب الذى عرف فى العصر الوسيط، واشتهر شهرة كبيرة، وإن كانت تلك الشهرة لم تبلغ الشهرة التى بلغها كتاب (القانون) لابن سينا، كما قلنا ذلك فى بداية هذه الدراسة.

---

(١) لمعرفة تفصيلات هذه النكبة وأسبابها، يمكن الرجوع إلى كتابنا: (النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد) دار المعارف بالقاهرة، عام ١٩٦٨م، وأيضاً كتابنا: (تجديد فى المذاهب الفلسفية والكلامية) ـ دار المعارف ـ القاهرة.

لم يقتصر ابن رشد على التأليف فى الطب، بل إنه اشتغل بالطب عمليا؛ إذ أن بعض مترجمى حياته يقولون إنه كان يُلجأ إلى فتواه فى الطب كما يُلجأ إلى فتواه فى الفقه، حتى تولى منصب الطبيب الخاص للخليفة يوسف محتلا بذلك المقام الأول بين علماء الأندلس.

ومن الجدير بالذكر أن ابن رشد ـ كما سنوضح بعد قليل ـ لم يخرج الطب عن مجال الفلسفة، فالعصر الذى عاش فيه كان عصر إدخال للعلوم كلها فى إطار الفلسفة، طبقا للنظرة الأرسطية للفلسفة، والتى كانت عنده دراسة شاملة للوجود ككل، بما يشمله هذا الوجود فى مجالات عديدة يعنى كل مجال منها بناحية معينة. ولا يخفى أن هذا على النقيض من نظرتنا إلى الطب الآن، والذى أصبح علما مستقلا قائما بذاته، له مناهجه التجريبية التى تقوم على الملاحظة والتشريح وإجراء التجارب المعملية. . . . الخ.

هذا، ولم يدرس فيلسوفنا الطب إلا من جهة الأمور العامة الكلية لا النواحى التفصيلية الجزئية. وهذا واضح من عنوان كتابه (الكليات). فهو قد درس جميع أنواع الأمراض المعروفة حتى عصره دراسة عامة، دون أن يتطرق إلى البحث فى التفاصيل الفرعية؛ ولهذا نجده يوصى صديقه أبا مروان عبد الملك بن زهر ـ وهو من كبار أطباء عصره ـ أن يضع كتابا فى الأمور الجزئية؛ لتكون جملة كتابيهما كتابا شاملا فى صناعة الطب. يقول ابن رشد: فمن وقع له هذا الكتاب (الكليات)، دون هذا الجزء، واجب عليه أن ينظر بعد ذلك فى الكنانيش.

خامسا: مؤلفاته فى ميدان الطب:

(١) كتاب الكليات: Culliyyat Generalltes

أشرنا إلى هذا الكتاب منذ قليل، ويعتبر هذا الكتاب عمدة كتبه فى مجال الطب. وقد أشادت المراجع التى تعرضت للبحث فى مؤلفات ابن رشد الطبية بهذا الكتاب، ويرجح Leon Gauthier فى كتابه Averroes أن ابن رشد قد ألف هذا الكتاب ما بين عام ١١٦٢ وعام ١١٦٩م.

أما S.Munk, E.Renan فيرجحان أن هذا الكتاب قد ألفه ابن رشد قبل عام ١١٦٢م ويستدلان على ذلك بأن ابن رشد كان يذكر اسم صديقه ابن زهر وهو الذى توفى عام ١١٦٢م، كمعاصر له ولازال حيا.

وقد ذكر هذا الكتاب ابن أبى أصيبعة وابن الأبار. وكذلك نجده مذكورا فى قوائم المكتبات الكبرى التى تحتوى على بعض مؤلفات ابن رشد كمكتبة الأسكوريال بأسبانيا، والمكتبة الأهلية بباريس.

والقارىء لهذا الكتاب الذى يتضمن سبعة أجزاء، يجد أن ابن رشد قد تأثر تأثرا كبيرا بآراء أرسطو الفلسفية، وطالما نجده قد استفاد منها فى تقرير نظرياته الطبية، بالإضافة إلى نقده لأسلافه فى بعض النواحى العلاجية.

(٢) شرح أرجوزة ابن سينا فى الطب:

Commentatre Sur Le Poeme Medical d'Ibn Sine Appele Ardjuza

ويقول E.Renan عن هذا الشرح: إنه من أكثر تآليف ابن رشد انتشارا. وجدير بالذكر أن هذا الشرح يوجد مخطوطا بنصه العربى فى عدة مكتبات، ومن هذه المخطوطات نسخة موجودة بدار الكتب المصرية مع مجموعة.

والمهم فى هذا الشرح أن طبيبنا ابن رشد يؤكد فيه ـ وهو يشرح طب ابن سينا ـ المبادىء التى انتهى إليها فى كتابه (الكليات). فيذهب إلى أن صناعة الطب تتكون من مبادىء العلم الطبيعى ومن مبادىء صناعة الطب التجريبية، ومنها التشريح. ومعنى هذا أنه لابد من معرفة الكليات التى تحتوى عليها هذه الصناعة ـ أى صناعة الطب ـ يضاف إليها طول المزاولة، بحيث إذا زاول الإنسان أعمال هذه الصناعة حصلت له ـ كما يقول ابن رشد ـ مقدمات تجريبية، يقدر بها أن يوجد تلك الكليات فى المواد.

وهذا يؤدى بابن رشد إلى التأكيد على ضرورة الجمع بين العلم والتجربة، أو بين الأسس النظرية والتطبيقات العملية. فهو يقول إنه لابد من العلم مع

التجربة؛ «لأنه ليس يكتفى فى هذه الصناعة بالعلم دون التجربة، ولا بالتجربة دون العلم»، ولذلك كان من شرط الطبيب أن يكون مع قيامه على علم الطب مزاولا لأعماله.

(٣) الترياق: De La Theriaque

ويشير ابن رشد إلى هذا الكتاب بين تضاعيف كتابه الكبير فى الطب (الكليات). ويقول E.Renan: إن هذا الكتاب يوجد بنصه فى مكتبة الأسكوريال بأسبانيا، بالإضافة إلى وجود ترجمات لاتينية وعبرية له فى كثير من المكتبات.

(٤) فى المزاج المعتدل: Des

(٥) رسالة المفردات:

temperaments egaux Un traite De Simpliclbus

ويقول E.Renan إن الموجود فى هذه الرسالة يخالف الموجود فى الرسالة التى تحمل نفس الاسم والتى نشرت باللاتينية، إذ أن هذه الرسالة الأخيرة هى نفسها القسم الخامس من كتاب الكليات.

(٦) تنوع المزاج وتباينه:

Des temperamen torum differentlis

يقول E.Renan أيضا إنه توجد نسخة من هذه المقالة بنصها العربى.

(٧) عرض كتاب طريقة الشفاء لجالينوس

(٨) عرض كتاب الأدوية المفردة: De Medicaments Simples لجالينوس

(٩) عرض كتاب المزاج لجالينوس: De Temperamentis De Galien

(١٠) عرض كتاب الاسطقسات لجالينوس: Istouchisat De Galien

(١١) عرض لمقالات جالينوس الخاصة بتشخيص الأعضاء المصابة.

(١٢) مباحثات متبادلة بين أبى بكر بن طفيل وبين ابن رشد فى وصفه للدواء فى كتابه المسمى بالكليات.

Traites echanges entre Abou Bekr Ibn Tofail et Ibn Roshd sur le chapitre des medicaments, tel qu il se trouvedansson liver intitule culliyyat

(١٣) كتاب فى حميات العفونة Les Fievres Putrides

(١٤) مسألة فى تناوب الحمى La fievre Intermittente

(١٥) نظام الملينات فى الطب Canones de Medicinis Laxativis

(١٦) فى وسيلة التناسل de spermate

(١٧) إجابات أو إرشادات فى موضوع الإسهال

Reponses ou Conseils touchant la diarrhee

(١٨) عرض أو شرح وسيط لكتاب الحميات لجالينوس

De Febribus de galien

(١٩) عرض لكتاب القوى الطبيعية لجالينوس

De Facultatibus Naturalibus

(٢٠) عرض لكتاب علل المرض وأعراضها لجالينوس

هذه هى الكتب الطبية التى تنسب لفيلسوفنا وطبيبنا ابن رشد، منها ـ كما هو واضح ـ ما قام ابن رشد بتأليفه، ومنها ما هو شرح على كتب الأطباء الذين سبقوه كجالينوس وابن سينا. ولكن يجب القول بأنه فى شرحه لم يقتصر على مجرد العرض فقط، بل إنه كثيرا ما يوجه سهام نقده إلى آراء بدت عنده آراء خاطئة. وهذا ـ كما سيتضح ـ سبب اهتمامه بمؤلفات جالينوس بالذات.

سادساً: عرض لأهم معالم آرائه الطبية من خلال كتابه «الكليات»:

قلنا إن البحث فى طب ابن رشد جدير بالنظر والدراسة المستفيضة. إذ من العار أن تظل أكثر كتب ابن رشد الطبية- بل كلها، إذا ستثنينا «الكليات»- دون دراسة نقدية موضوعية تحليلية. إن واجبنا البحث عن مخطوطات مؤلفاته وشروحه الطبية فى مكتبات العالم شرقا وغربا والعمل على دراستها دراسة تحليلية، حتى يمكننا البحث فيما احتوت عليه هذه المؤلفات والشروح، وحتى نكون قد قمنا بواجبنا نحو فيلسوف وطبيب لقى إهمالا كبيرا من جانب أبناء دينه ووطنه، فى الوقت الذى احتفلت فيه أوروبا بهذا الفيلسوف احتفالا كبيرا، بحيث لقيت الدراسات حول كتب فيلسوفنا فى أوروبا الكثير من العناية.

وفى السطور التالية سنحاول من جانبنا عرض أهم آرائه الطبية، وخاصة من خلال أهم مؤلفاته الطبية على وجه الإطلاق، وهو كتاب الكليات.

(١) موضوع صناعة الطب والأقسام التى تنقسم إليها هذه الصناعة:

الدارس لمؤلفات وشروح طبيبنا ابن رشد يجد أن نزعته الفلسفية قد أثرت فى آرائه الطبية، كما يجد أن ابن رشد يتأثر بأرسطو أكثر من تأثره بجالينوس. بل إنه فى كثير من المواضع لا يتردد فى تفضيل آراء الأول على آراء الثانى. فهو إذا كان قد عقد كثيرا من الصفحات فى كتبه الفلسفية والتى تتحدث عن عظمة أستاذه أرسطو وتفضيله على ما عداه من مفكرى البشرية قاطبة، فإن التأثر بأرسطو لم يقتصر على مجال الفلسفة عند ابن رشد، بل نجده قد تعدى ذلك إلى ميدان الطب.

وسننقل فيما يلى نصا لابن رشد من كتابه (الكليات) يوضح لنا موضوع صناعة الطب، والأقسام التى تنقسم إليها هذه الصناعة.

يقول ابن رشد (ص٧ من الكتاب المذكور آنفا): إن صناعة الطب صناعة فاعلة عن مبادىء صادقة يلتمس بها حفظ بدن الإنسان وإبطال المرض، وذلك

بأقصى ما يمكن فى واحد واحد من الأبدان؛ فإن هذه الصناعة ليس غايتها أن تبرىء ولابد، بل أن تفعل ما يجب بالمقدار الذى يجب، وفى الوقت الذى يجب، ثم تنتظر حصول غايتها، كالحال فى صناعة الملاحة وقيادة الجيوش.

ولما كانت الصنائع الفاعلة- بما هى صنائع فاعلة- تشتمل على ثلاثة أشياء: **أحدها** معرفة موضوعاتها، **والثانى** معرفة الغايات المطلوب تحصيلها فى تلك الموضوعات، **والثالث** معرفة الآلات التى تحصل بها تلك الغايات فى تلك الموضوعات، انقسمت باضطرار صناعة الطب أولا إلى هذه الأقسام الثلاثة.

فالقسم الأول الذى هو معرفة الموضوعات يعرف فيه الأعضاء التى يتركب منها بدن الإنسان البسيطة والمركبة. ولما كانت الغاية المطلوبة هنا صنفين: حفظ الصحة، وإزالة المرض انقسم هذا الجزء إلى قسمين: أحدهما يعرف فيه ما هى الصحة لجميع ما به تقوم، وهى الأسباب الأربعة التى هى: العنصر، والصورة، والفاعل، والغاية وجميع لواحقها.

والقسم الثانى يعرف فيه ما هو المرض أيضا بجميع أسبابه ولواحقه.

ولما كان أيضا ليس فى معرفة ماهية الصحة والمرض كفاية فى حفظ هذه وإزالة هذا، انقسم هذان الجزءان أيضا إلى جزأين آخرين أحدهما يعرف فيه كيف تحفظ الصحة، والثانى كيف يبطل المرض.

ولما كانت الصحة أيضا والمرض ليسا بينين بأنفسهما من أول الأمر فقد احتيج أيضا إلى تعرف العلامات الصحية والمرضية، وصار هذا أحد أجزاء هذه الصناعة.

من النص الذى ذكرناه فيما سبق، ومن استعراض بعض الفصول التى كتبها الطبيب الفيلسوف ابن رشد، يمكننا أن نقول إن صناعة الطب عنده تنقسم إلى سبعة أجزاء يعرض لها ابن رشد بالتفصيل[1].

---

(١) يمكن الرجوع لمعرفة هذه التفصيلات إلى كتابنا: (النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد) ص ٣٥ وما بعدها (طبعة دار المعارف، القاهرة).

فهو يذكر فى الجزء الأول أعضاء الإنسان التى شوهدت بالحس. ويعرف فى القسم الثانى الصحة وأنواعها ولواحقها. والثالث المرض بأنواعه وأعراضه. والرابع العلامات الصحية والمرضية. والخامس الآلات، وهى الأغذية والأدوية. والسادس الوجه فى حفظ الصحة. والسابع الحيلة فى إزالة المرض.

(٢) العلاقة بين الطب والعلم الطبيعى:

قلنا فيما سبق إن ابن رشد لم يشأ إخراج الطب من دائرة الفلسفة، وهذا هو السبب فى أننا نجد الأثر الفلسفى بارزا فى طبه وفى طب الأقدمين بوجه عام كجالينوس وغيره.

وإذا كان ابن رشد- شأنه فى ذلك شأن أرسطو- قد جعل الحكمة أو الفلسفة تبتلع فى جوفها سائر العلوم بحيث تبدو العلوم وكأنها تتفرع بعضها عن البعض مكونة بذلك نسق الفلسفة، فإن ذلك قد دفع طبيبنا ابن رشد إلى بيان العلاقة بين الطب والعلم الطبيعى.

وسنحاول فى السطور التالية بيان تصور ابن رشد لهذه العلاقة، وذلك على ضوء ما كتبه فى (الكليات) وفى (شرح أرجوزة ابن سينا فى الطب)، وكذلك بعض العبارات المتناثرة هنا وهناك فى كتبه الفلسفية كتهافت التهافت.

يذهب ابن رشد إلى أن الطب صناعة تؤخذ مبادئها من العلم الطبيعى. بيد أن العلم الطبيعى يعد نظريا، أما الطب فيعد عمليا. وعلى ذلك فإننا إذا تكلمنا فى شىء مشترك للعلمين فإن ذلك يكون فى جهتين.

نوضح ذلك فنقول بأن صاحب العلم الطبيعى إذا كان ينظر فى الصحة والمرض من حيث هما من أجناس الموجودات الطبيعية، فإن الطبيب ينظر إليهما ـ أى الصحة والمرض ـ من حيث إنه يحفظ أحدهما ويبطل الآخر، أى يبقى على الصحة ويعمل على إزالة المرض.

يقول ابن رشد (كتاب الكليات ص٨): ينبغى أن تعلم أن صاحب العلم الطبيعى يشارك الطبيب؛ إذ كان بدن الإنسان أحد أجزاء موضوعات صاحب

العلم الطبيعى. لكن يفترقان بأن هذا ينظر فى الصحة والمرض من حيث هى أحد الموجودات الطبيعية، وينظر الطبيب فيهما من حيث يروم حفظ هذه وإزالة تلك.

ويصعد ابن رشد من ذلك إلى تقرير العلاقة بين العلم الطبيعى والطب. فالصناعات ـ التى تتسلم عنها صناعة الطب كثيرا من مبادئها ـ بعضها نظرى، وهو العلم الطبيعى، وبعضها عملى، وهذه منها صناعة الطب التجريبية، ومنها صناعة التشريح. أما صناعة الطب من حيث هى شىء عملى فإنه يستفاد منها معرفة قوى وخصائص أكثر الأدوية؛ وذلك لأن الذى يدرك منها بالقياس شىء نزر بسيط لا يكفى فى تكامل وجود هذه الصناعة. فإذن الصناعة الطبية القياسية تقتصر على أسباب ما أوجدته الطريقة التجريبية.

يتضح لنا من هذا كله ـ وخاصة من تلك العبارة الأخيرة ـ كيف أن ابن رشد يولى الطرائق التجريبية عناية كبيرة، ويجمع بين الناحية النظرية والناحية العملية. وإذا كنا قد قلنا فيما سبق إن ابن رشد قد أثرت فيه الآراء الفلسفية النظرية، فإن ذلك لم يمنعه من أن يعترف بأهمية الناحية العملية ودورها فى الأبحاث الطبية والطرق العلاجية.

(٣) مصدر حركة الجسم:

أشرنا ـ فى الصفحات السابقة – إلى أن ابن رشد قد توفر على دراسة كتب من سبقه من أطباء ـ وخاصة جالينوس الطبيب الكبير ـ كما بينا أن ابن رشد كثيرا ما يفضل آراء الفيلسوف أرسطو على آراء الطبيب جالينوس، وسنكتفى فيما يلى بإيراد رأى واحد من الآراء المبثوثة بين تضاعيف (كتاب الكليات) بصفة خاصة، رأى يدرس مصدر حركة الجسم ويبين لنا نقد ابن رشد لجالينوس.

يتساءل ابن رشد عن مصدر حركة الجسم، ويرى أنه الحرارة الغريزية التى فى أبدان الحيوان؛ ولذلك متى بردت الأعضاء بطلت حركتها.

وإذا كان جالينوس قد انتهى إلى القول بأن مصدر هذه الحرارة هو الدماغ،

وأنها تنبث منه فى الأعصاب إلى جميع البدن مستدلا على ذلك بالقول بأن اختلال الإدراك الحسى والحركة يتأثر بكل ما يصيب الدماغ من ألم، فإن ابن رشد يذهب إلى أن الدماغ يعد فى الواقع خادما للقلب، وعلى ذلك تكون الحرارة مصدرها أساسا القلب لا الدماغ.

وإذا تأملنا فى قول ابن رشد هذا تبين لنا كيف أن ابن رشد قد انحاز تماما إلى رأى أرسطو، الذى يعتبر القلب عضوا أصليا، ويعده مصدرا لجميع وظائف الحياة الحيوانية. يقول ابن رشد: «إنه يظهر أن الماشى فى حين مشيته تنتشر فى بدنه حرارة لم تكن قبل، والعضو الذى شأنه أن تنتشر منه الحرارة فى جميع البدن هو القلب لا شك فيه؛ ولذلك متى طرأ على الإنسان شىء يفزعه وانقبضت الحرارة الغريزية إلى القلب ارتعشت ساقاه، حتى أنه ربما سقط ولم يقدر أن يتحرك».

وهكذا يضرب لنا ابن رشد الكثير من الأمثلة التى يرى أنها تدلل على رأيه فى أن القوة المدبرة التى تقدر هذه الحرارة الغريزية فى الكمية والكيفية، هى فى القلب ضرورة، كما أن مركز الإدراك الحسى إنما يتمثل فى الحرارة الغريزية التى توجد فى القلب بذاتها كما توجد فى سائر الأعضاء بما يصل إليها من الشرايين النابتة من القلب. أما الدماغ الذى يقول به جالينوس فإنه لا يمكن أن يكون ينبوع الإحساس، بل إن عمله لا يتعدى تعديل الحرارة الغريزية فى آلة الحس.

لعلنا بعد ذلك كله نكون قد أوضحنا أهم معالم الآراء الرئيسية لابن رشد فى مجال الطب. وكيف كان يتأثر تارة، وينقد تارة ثانية، ويضيف آراء خاصة به تارة ثالثة. كل ذلك نتيجة لتعمقه فى البحث واجتهاده فى محاولة الوصول إلى الحقيقة بما تشمله من مجالات عديدة. ونعتقد أن واجبنا نحو هذا الفيلسوف الطبيب يقتضى منا البحث عن كتبه فى جميع المكتبات المتفرقة شرقا وغربا، والعمل على نشرها ودراستها؛ حتى تظهر أمامنا الصورة الصحيحة والدقيقة لمفكر عربى كبير.

* * *